الفصل الثالث

حـزمة الحيـاة

عندما يترك المسافر الأراضى الخصبة التى تتوسط أرض الميعاد ؛ ويتجـه شرقا الى البحر الميت ؛ فانه يخترق فى بداية الأمر سلسـلة من التلال الممتدة والوديان التى تغطيها الحشائش والنباتات الطفيلية • فاذا استمر فى سـيره فى هذا الاتجاه فان المنظر الطبيعى يتغـير أمامه ؛ اذ تختفى أمامه الأعشاب الخضراء والنباتات الشوكية ، ويجد نفسه يمر تدريجيا فى منطقة جرداء جافة ، هى عبارة عن مساحات هائلة من الرمال ذات اللون الأصفر أو البنى ، ومن الأحجار الجيرية المتفتتة ، والحصى المبعثر • ولا يخفف من حدة جفاف هذه المنطقـة سوى مجموعة الشجيرات الشائكة والنباتات المتسلقة ذات العصارة • وبعد ذلك لا تكاد تقع العين الى مسافة عدة أميال على شجرة أو مسكن لانسان ، أو على أى مظهر من مظاهر الحياة • انما هى مجـرد سلاسل من التلال المتشابهة التى تنتظم فى تتابع لا نهائى رتيب ، فهى جميعا ذات لون أبيض ، منحدرة وضيقة ، كما يتخلل جوانبها عدد لا نهاية له من الأجراف الجرداء • وتلوح للمسافر قممها وهى تعلو الى السماء فى حدة وصلابة ، وذلك فى أثناء صعوده من المسطحات العريضـة التى يكسوها الطين الأبيض الناعم وتخترقها أحجار الصـوان التى تعزل كل سلسلة من التلال عن السلسلة الأخرى التى تقع خلفها • وتبدو المنحدرات الأكثر قربا لهذه التـلال المنعزلة ، كما لو كانـت الأمطار الغزيرة المفاجئة قد مزقتها وشققتها • أما المرتفعات التى تقع على بعد فتوحى بأنها أكوام من الرماد ذات شكل شيطانى • وفى بعض الأمكنة يسمع لوقع أقدام الخيل صوت عميق ، وفى بعض الأماكن

الأخرى تنزلق الأحجار والرمال من تحت حوافر الخيل • أما فى الاخاديد العديدة فان الصخور تتوهج بتأثير حرارة الشمس الحارقة التى تتسلط عليها من سماء تخلو كلية من السحب • فاذا استمر المسافر فى طريقه شرقا ؛ فان الطبيعة المتعزلة التى تحيط به هنا وهناك تتألق بين اللحظة والأخرى بمرأى البحر الميت بمياهه التى تضرب الى الزرقة الدكناء تجرى فى تجويف بين التلال عاكسة بذلك نوعا من التناقض الممتع بين زرقتها المتلألئة وألوان الصحراء الرتيبة الجافة • حتى اذا صعد المسافر آخر سلسلة من هذه التلال ؛ ووقف على حافة الصخور الكبيرة ؛ فانه يفاجأ أمامه بمنظر رائع ، فهناك أسفل منه بحوالى ألفى قدم يقع البحر الميت واضحا كل الوضوح ممتدا من طرفه الأدنى الى طرفه الأبعد ، كما تبدو له شواطئه التى تتكون من صخور صلبة صخرة تلو الأخرى ونتوءات يقع بعضها وراء بعض تفصلها الأخاديد العميقة التى تتخللها أراض تتوغل فى المياه الزرقاء الهادئة ، بينما تشمخ جبال موآب وراء البحيرة حتى تختفى فى الأفق البعيد ملتحمة بالسماء ذات اللون اللازوردى • فاذا اخترق المسافر البحر الميت عبر ينابيع « عين جدى » فانه يجد نفسه فوق قمم صخور مدرجة ذات شكل عمودى على وجه التقريب ، قد نحت فيها درب ملتف ذو صخور خشنة يؤدى الى سهل فى شكل حدوة ينحدر الى حافة المياه • وفى هذا الدرب يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه فى حرص وهو يهبط هذا الدرب المنحدر كل الانحدار • فاذا كان وراءه مسافرون آخرون ، فانهم يخطون فى حذر ، لأن أية انزلاقة لأقدامهم قد تزحزح حجرا يتدحرج فى سرعة الى أسفل ويصيب المسافر الذى يسير فى أمان عبر الدرب • وعند سفح هذه الكتل الصخرية يتفجر نبع « عين جدى » (النبع الطفل) من فوق الصخر بمياهه الدافئة الغزيرة فى شكل شلال يتدفق وسط واحة نضرة تنمو فيها نباتات نصف استوائية.وكل هذا يفاجىء المسافر كل المفاجئة عندما يجد نفسه قد ترك البرية القفر التى تخلو منها المياه بعد أن قضى ساعات فى عبور أرضها الوعرة • وهذه البرية هى التى أطلق عليها

العبريون اسم « يشمون » أى الخراب أو برية يهوذا • وهى تمتد من مياه البحر الميت المرة والصافية فى الوقت نفسه ، حتى جبل الزيتون على بعد ساعتين من بوابات معبرون (الخليل) وبيت لحم وأورشليم •

والى هذه البرية الموحشة هرب داود من عدوه العتيد « شاءول » الذى ظل يقتفى أثره ، طالبا الحماية • وبينما كان يختبىء هناك مع عصبة من الرجال المهزومين الذين جمعهم من حوله ، زارته «أبيجايل» المرأة الجميلة الحكيمة زوجة المزارع الغنى « نابال » الذى كان يمتلك قطعانا من الغنم ، والذى كان قد تعهد له الشاب الطريد داود فى صدق بالغ ألا يسرق غنمه • على أن المزارع الساذج الفظ لم يدرك قيمة هذه الخدمة التى قدمها له هؤلاء المطاردون ، ورفض بازدراء ما طلبه منه زعيمهم فى أدب جم أن يزوده بسلفة من المؤن • وحركت هذه الاهانة احساس داود البالغ بكرامته ، ومن ثم فقد اتخذ طريقه عبر التلال الى هذا المزارع على رأس أربعمائة رجل من أشداء الرجال ، كل منهم يحمل سيفه العريض فى جنبه • وكان داود على وشك أن يتخذ طريقه مباشرة الى مزرعة هذا المزارع عندما قابلته زوجته التى استطاعت بكلماتها الرقيقة أن تلطف من حدة كبرياء الزعيم الغاضب ، بل انها أتت اليه بما هو أفضل من الكلمات ألا وهو قافلة من الحمير المحملة باللحوم والشراب من أجل جماعته التى كاد الجوع أن يقتلها• فى الحال تبدد غضب داود بتأثير جمال المرأة وكلماتها الناعمة وبمرأى الحمير المحملة بالزاد • واستقبل داود الزوجة التى جاءت لتعتذر عن تصرفات زوجها بلطف جم ووعدها بألا يتعرض له بخطر • ولكنه لم ينس أن يلمح لها بنظرة معبرة بأن الشمس لم تكن لتشرق على مزرعة زوجها فى صباح اليوم التالى ، لو لم تهم بمقابلته • وبعد ذلك تركها داود بعد أن خلع عليها بركته ، ثم ولى ظهره هو وجماعته ، وقافلة الحمير من ورائه ؛ وعاد الجميع من حيث جاءوا بعد أن قطعوا على أنفسهم العهد بألا يتعرضوا لهذا المزارع بأى

أذى • أما الزوجة فربما ابتسمت وتنهدت وهى تنظر خلفها تـرقب هؤلاء الرجال الأشداء الذين أحرقت الشمس وجوههم ، وهم يواصلون الخطو فى رشاقة حتى اختفوا وراء أقرب سلسلة من التـلال • ثم عادت الى بيتها وقد انزاح عن قلبها عبء ثقيل ، لتجد زوجها المزارع الســاذج مع رجاله يعبون الشراب بعد أن فرغ من جز الخراف بوقت طويل ، دون أن يشغل باله بما قد حدث فوق التلال • فتركت الزوجة الحكيمة زوجها عـلى ما هـو عليه ، دون أن تطلعه على شىء ممـا حدث • ولكن عندما أفاق الزوج فى اليوم التالى أخبرته بما فعلته ، وفى الحال شـعر الزوج بأن قلبه كـاد يـكف عن الخفقـان ، اذ كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها الزوج • ولم تكد تمضى عشرة أيام حتى كان قد لفظ أنفاسه • وبعد مرور بعض الوقت على وفاته خـرجت الأرملة فوق التلال لتلحق بزعيم العصابة المطاردة •

وهناك عبارة تستلفت نظـرنا بين عبارات الاطـراء التى ذكرتها « ابيجايل » الساحرة لداود المرهف الحس ، عند مقابلتها الأولى له • فلقد قالت له : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الرب الهك وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » (١) ••

ومما لا شك فيه أن هذه العبارة استعارية ، ولكن الاستعارة فيها غريبة وغامضة بالنسبة لأى كاتب انجليزى • ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها • أما فى حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هذه الفكرة حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح • واذا كان هذا التصور يبدو من وجهـة نظرنا نحن الذين نرى أن الروح تظل ملازمة للجسد طالما كانت الحياة

---

(١) سفر صموئيل الأول ، الاصحاح الخامس والعشرون آية ٢٩ .

تدب فيه ، منافيا للطبيعة ، فهو قد يبدو طبيعيا بالنسبة للشعوب الأخرى التى يختلف تصورها للحياة عن تصورنا كل الاختلاف • فهنـاك فى الحقيقة عقيدة تنتشر بين الشـعوب البدائية انتشارا واسعا ، تتخلص فى أن الروح يمكن أن تغادر الجسد ، بل انها كثيرا ما تغادره ، دون أن ينجم عن هذا الوفاة العاجلة • فالأشباح والشياطين وأشرار الناس الذين يحملون ضغينة لشخص ما ــ كل هؤلاء يقومون بسرقة الروح من الجسد بقصد القضاء على صاحبها • واذا نجحوا فى ذلك وتمكنوا من اعاقة الروح فترة طويلة ، فان صاحبها يمرض ويموت • وهذا هو السبب فى أن الناس الذين يوحدون بين أرواحهم وظلالهم أو صورهم التى تنعكس على مسـطح عاكس ، يخافون كل الخـوف مـن آلة التصوير ، لأنهم يعتقدون أن المصور الذى صور أشكالهم ، قد انتزع أرواحهم أو ظلالهم معها • وها هو ذا مثال من بين عشرات الأمثـلة التى تؤيد هذا القول • نصب مستكشف آلة تصويره فى قـرية من القرى التى تقع فى أدنى مجرى نهر « يوكون » فى « ألاسكا » ، وذلك لكى يأخذ صورة للاسكيمو وهم يتحركون بين بيوتهم • وبينما كـان يركز آلة تصويره على هذا المنظر جاءه زعيم القرية وأصر على أن ينظر معه أسفل قطعة القماش • فلما سمح له المستكشف بذلك ، ونظر هنيهة عـلى الأشـكال المتحركة على زجاج العدسة ، رفع رأسـه على الفور وأسرع الى قومه وقال لهم : « احذروا ، فلقد أخذ كل ظلالكم فى صندوقه » وعند ذلك دب الذعر بين الناس ، واختفوا فى لحظة فى فوضى واضطراب فى بيوتهم • فآلة التصوير ، أو مجموعة الصور ، تعد وفقا لهذه العقيدة حزمة من الأرواح أو صندوقا ترص الأرواح فيه ، كما يرص السردين فى العلب استعدادا لتصديره •

وقد تنتزع الأرواح من الأجسـام لتحقيق غرض خير • فالرجل البدائى يعتقد فيما يبدو أن الانسان لا يبتلى بالموت ، طالمـا كانت روحه غير معرضة للأذى ، سواء كانت داخل جسمه أم خارجه • وبناء على ذلك فان الرجل البدائى يتصور أنه اذا نجح فى انتزاع روحـه

من جسده والاحتفاظ بها فى مكان ما بعيدا عن أى سوء ، فانه سيظل خالدا ، طالما بقيت روحه فى هذا المأمن بعيدة عن الأذى وعن الازعاج. ولذلك فان الرجل البدائى القلق على حياته ينتزع روحه أو روح صديقه فى بعض الأحيان فى أوقات الخطر فى حرص بالغ ، ويودعها فى مكان آمن ، حتى يزول الخطر ثم يستعيدها بعد ذلك • ومثال ذلك أن كثيرا من الشعوب تعد الانتقال من بيت لآخر فترة عصيبة تحيط فيها الاخطار بأرواحهم • وفى مثل تلك الظروف العصيبة ، يجمع الكاهن فى « ميناهاسا » وهو اقليم فى « سيليبس » ، أرواح الأسرة فى حقيبة يحتفظ بها عنده حتى يزول الخطر ، ثم يعيد كل روح على حدة الى صاحبها • وعندما يحين الوقت الذى تضع فيه المرأة طفلها فى سيليبس الجنوبية ، فان الرسول الذى يذهب ليستدعى الطبيب أو الداية يأخذ معه سكينا حادة أو أى آلة أخرى مصنوعة من الحديد • وهذه الآلة التى يحملها معه تمثل روح المرأة التى يعتقد أنها تكون أكثر أمانا اذا كانت خارج جسدها فى هذا الوقت العصيب • ومن ثم فانه يتحتم على الطبيب أن يحرص على هذه الآلة ، لأنها متى فقدت ، فان روح المرأة تفقد معها • ولهذا فهو يحتفظ بهذه الآلة فى بيته حتى تنتهى المرأة من وضع طفلها ، وعند ذاك يحمل اليها الوديعة الثمينة ويتسلم أجره منها • وفى جزر « كاى » تشق ثمرة جوز هند مجوفة إلى شقين ، ثم يلحم الشقان بعناية وتعلق الثمرة فى بعض الأحيان كما رأينا ذلك • وهذه الثمرة تحتضن روح الطفل المولود حتى لا تقع فريسة للأرواح الشريرة ان لم يحتفظ بها على هذا النحو • وتظل الروح فى حالة غير مستقرة بين هذين الشقين حتى يلتحما تماما • ويتخذ الاسكيمو فى الاسكا إجراء احتياطيا شبيها بهذا الاجراء للمحافظة على روح الطفل المولود • فالطبيب يحول الروح الى شكل تعويذة سحرية يضعها فى حقيبته ، وبذلك تكون الروح فى مأمن من أى أذى أينما وضعت هذه الحقيبة • وعندما تخرج المرأة فى نيوغينيا الجنوبية الشرقية حاملة طفلها فى حقيبة « يتحتم عليها أن تربط فى ازارها فرع نبات متسلق

من أى نوع . ومن الأفضل أن تربطه فى الحقيقة التى يستلقى فيها الطفل ، بحيث يجرجر وراءها على الأرض • فاذا حدث أن تجول روح الطفل خارج جسده فإنه ينبغى أن يعد للروح شىء يتمكن من التسلق عليه حتى يدخل الجسد مرة أخرى وهل هناك وسيلة مناسبة تعين الروح على التسلق أكثر من هـذا النبـات المتسـلق الذى يصـادفه أمامه فى الطـريق ؟ •

وربما كانت أكثر الأمثلة قربا من « حزمة الحيـاة » ، حـزم « شورونجا » وهى عبارة عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة « أرونتا » وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى بعناية كبيرة وسرية تامـة فى كهـوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية ، وبالمثل كل عصا ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كـان أم ميتا • ذلك أنه بمجرد أن تدخل روح الطفل بطن أمه لكى يولد فيما بعد ، يوضع حجر من هذه الأحجار أو هذه العصى فى المـكان الذى شعرت فيه المرأة لأول مرة بحركة فى بطنها • ثم يأخذ الزوج بمعونة الزوجة فى البحث عن حجر هذا الصبى أو عصا • فاذا عثرا على الحجر أو انتزعا العصا من أقرب شجرة صلبة ، فان الأب يسلمها الى زعيم حيه الذى يودعها بدوره مع سـائر الأحجـار والعصى فى المخزن المقدس الذى يقع بين الصخور • وكثيرا ما تربط هذه الأحجار فى شكل حزم • وهى تعد أكثر الممتلكات قدسية عند القبيلة ، وتحجب الأمكنة التى توضع فيها بمهارة عن الأنظار ، فتوصد مداخل الكهوف بالأحجار التى ترص بطريقة طبيعية للغاية حتى لا تثير حولها الشكوك• ولا يعد المكان الذى تخبأ فيه الأحجار والعصى وحده مقدسا ، وانمـا يشاركه هذه القدسية كل ما يحيط به • فلا ينبغى أن تمس النباتات والأشجار التى تنمو من حوله بأى حال من الأحوال ، كما لا ينبغى التحرش بالحيوانات التى تتجول من حوله • واذا تمكن شخص هارب من أعدائه او من الآخذ بثأره منه ، أن يلجأ الى هذا المكان المقدس ، فانه يظل فى أمان طالما بقى فى نطاق حدوده • ويعد فقـدان هـذه

« الشورونجا » ، وهو الاسم الذى يطلق على هذه العصى والأحجار التى ترتبط بأرواح أحياء ووفيات جماعة من الجماعات ، أكثر الشرور خطرا يمكن أن تحل بهذه الجماعة • فاذا سرقتها منهم جماعة من البيض المتهورين ، فان الأهالى ، كما يعرف ذلك عنهم ، لا يبرحون خيامهم طول أربعة عشر يوما يبكون فى أثنائها وينتحبون على خسارتهم ويطلون أجسامهم بالجص ، وهو شعار الحزن على الأموات عندهم •

وتعد هذه المعتقدات والممارسات التى تنتشر فى استراليا الوسطى فيما يختص « بالشورنجا » وكما سبق أن لاحظ ذلك « مسرز » و « سبنسر » و « جيلين » بحق : « تحويرا للفكرة التى عبرت عنه شعوب كثيرة ، والتى ، وفقا لها ، ينظر الرجل البدائى الى روحه بوصفها شيئا ماديا يمكن أن يضعه ، وفقا لتصوره ، فى مكان آمن بعيدا عن جسمه اذا تطلبت الضرورة ذلك • فاذا تعرض جسمه للخطر بشكل أو بآخر ، فان روحه التى تقع بعيدا عن جسمه • تظل بعيدة عن الأذى » • على أن الأرونتيين فى العصر الحاضر لا يعتقدون فى أن هذه الأحجار والعصى المقدسة هى المكان الحقيقى الذى تستكن فيه أرواحهم ، بمعنى أن تحطيم احدى هذه العصى أو الاحجار يؤدى بالضرورة الى هلاك الرجل أو المرأة أو الطفل الذى ترتبط روحه بهذا الحجر أو بتلك العصا • ولكننا نصادف فى تراثهم أخبارا واضحة عن أن أجدادهم كانوا يودعون أرواحهم فى هذه الأشياء المقدسة • فقد قيل على سبيل المثال ، ان بعض الرجال الذين ينتسبون الى الطوطم « القط البرى » ، كانوا يحتفظون بأرواحهم فى الـ « شورنجا » التى تعودا أن يعلقوها على عامود مقدس فى الخيمة ، عندما يخرجون للقنص • فاذا عادوا من رحلتهم ، فانهم يأخذونها من العامود ويضعونها حيث كانت • والغرض من تعليق الـ « شورينجا » على العامود عندما تخرج الجماعة للقنص ، هو الاحتفاظ بأرواحهم فى أمان حتى يعودوا •

وبناء على ذلك فان هناك من الأسباب ما يدعونا بحق لأن نعتقد

أن حزم العصى والأحجار المقدسة التى ما يـــزال « الأرونتيـــون » وغيرهم من القبائل التى تســـكن استراليا الوسطى يحتفظون بهـــا فى عناية كبيرة فى أماكن مقدسة ، كان يعتقد فيما سبق أنها مســـكن لروح كل فرد من أفراد الجماعة • وطالما كانت هذه الحزم مربوطة ربطا محكما وموضوعة فى مكانها المقدس ، ظلت أرواح الناس كذلك فى أمان وفقا لهذا الاعتقاد • فاذا ماحل رباط هذه الحزم وتبعثـــر ما فيها ، فانه ينجم عن ذلك أسوأ العواقب • وربما كان من قبيـــل التسرع أن نؤكد أن الســـاميين البدائيين كان يحتفظون بأرواحهم فى العصى والأحجار التى كانوا يودعونها فى الكهوف وشقوق الصخور فى قفار بلادهم ، ولكنه ليس من قبيل التسرع أن نؤكد أن مثل هذا الاعتقاد يمكن أن يفسر على نحو بســـيط وطبيعى كلمـــات أبيجايل التى وجهتها للزعيم الطريد ، وهى : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ، ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الـــرب الهك ، وأما نفس أعدائك ، فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » •

ومهما يكن الأمر فانه يبدو أن العبريين حتى زمن متأخر نسبيا ، كانوا يمارســـون نوعا من السحر الذى يهدف الى القبض على أرواح الأحياء واحتجازها بقصد الحاق الضرر البالغ بهم • وقد أشار النبى « حزقيال » الى هؤلاء السحرة الذين كانوا يمارسون هذا الســـحر الأسود فى العبارة الآتية :

« وأنت يابن آدم فاجعـــل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن ، وقل هـــكذا قال الســـيد الرب • ويل للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى ، ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس • افتصطدن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن• وتتجسننى عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز لاماتة نفوس لا ينبغى ان تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيـــا ـــ بكذبكن على شعبى السامعين للكذب • لذلك هكذا قال السيد الرب • ها أنا ضد وسائدكم التى تصطدن بها النفوس كالفراخ ، وأمزقها عن

أذرعكم وأطلق النفوس التى تصطدنها كالفراخ ، وأمزق مخداتكن وأنقذ شعبى من أيديكن ، فلا يكونون بعد فى أيديكن للصيد ، فلتعلمن أنى أنا الرب (١) .

ويبدو أن هذه الممارسات الشائنة التى كان يتبعها هؤلاء النساء اللاتى أشار اليهن النبى ، كانت عبارة عن محاولات للقبض على الأرواح الشاردة فى شباك وقطع من الأقمشة وبذلك يتمكن من قتل بعض الناس عن طريق امتهان أرواحهم امتهانا لا هوادة فيه ، كما يتمكن من انقاذ بعضهم الآخر ، وهم المرضى فيما يبدو ، وذلك عن طريق أسر أرواحهم الشاردة واعادتها الى أجسامهم . ومازال المشعوذون والسحرة فى كثير من بقاع العالم يقومون بمثل هذه الأفعال المشينة لتحقيق الغرض نفسه . فقد تعود زعماء « الفيجانيين » على سبيل المثال ، أن يأسروا أرواح المجرمين فى أوشحة ، وعند ذاك يتعرض هؤلاء المساكين الذين سلبوا أهم جزء من أجسامهم الى الهزال ويموتون . وبالمثل كان المشعوذون فى « جزيرة الخطر » التى تقع فى الباسفيك ، يأسرون أرواح المرضى فى شراك ينصبونها بالقرب من بيوت المرضى ، ويظلون يراقبون الأرواح وهى تأتى خافقة حتى تأسر بين خيوط الشباك . ويعقب هذا وفاة المريض المحتمة ان آجلا أو عاجلا . وتصنع الشباك من خيوط متينة بها عقد ذات أحجام مختلفة لتأسر الأرواح ذات الأحجام المختلفة كذلك ، كبيرة كانت أم صغيرة ، سمينة كانت أم نحيلة . أما عند زنوج افريقيا الغربية ، « فينصب السحرة شراكهم على الدوام لأسر روح المريض التى تهيم خارج جسده فى أثناء نومه . فاذا استطاعوا أسرها فانهم يربطونها ويضعونها فوق النار الموقدة فى زوارقهم ، وعند ذاك تحضر المريض الوفاة فى الوقت الذى ترتعد فيه الروح فوق النار . ولا يقوم السحرة بهذا العمل بدافع العداء الشخصى أو الانتقام ،

---

(١) سفر حزقيال الاصحاح الثالث عشر من آية ١٧ الى ٢١ .

بل هو مجرد عمل عادى يقومون به على الدوام • ولهذا فان الساحر لا يأبه بشخصية الروح التى تقع فى شراكه لأنه سيتسلم أجره عند اعادة هذه الروح الى صاحبها ، بصرف النظر عمن يكون الشخص الذى تنتسب اليه الروح • وبالمثل كان الأطباء السحرة الذين لم يكن تسىء هذه الأفعال التى سمعتهم ، يحتفظون بملاجىء تلجأ اليها الأرواح الشاردة وهى الأرواح التى كانت تتجول ثم وجدت عند رجوعها الى الأجساد ، أن مكانها قد شغلته الـ « سيسا » ، وهى روح تنتمى الى الطبقة الدنيا • وهؤلاء الأطباء يحتفظون بالأرواح ويرسلونها لتقدم المساعدة للمرضى العاجزين عن شفاء مرضهم • وقد حدث ذات مرة بين « الباوليين » الذين يسكنون ساحل العاج ، أن أخرجت روح زعيم من الزعماء بتأثير سحر أحد أعدائه الذى نجح فى أن يأسرها فى صندوق • عند ذاك أمسك رجلان برداء من أردية الزعيم ، بينما أخذت ساحرة تتلو بعض التعاويذ • ثم أعلنت الساحرة بعد وقت أن الروح قد أسرت فى الرداء • وبناء على ذلك لف الرداء فى سرعة حول الزعيم حتى يسترد روحه • ويقوم السحرة فى الملايو بأسر أرواح النساء اللاتى وقعوا فى حبهن ، فى طيات عماماتهم ، ثم يصنعونها فى أحزمتهم يتجولون بها نهارا • أما فى أثناء النوم فانهم يضعونها تحت وسائدهم • وقد تعود الكاهن بين « المترود جانبين» الذين يسكنون « سيلمبيس الوسطى » ، أن يدلى حول صدره وعلى ظهره خيطا رصت عليه القواقع البحرية التى يأسر بداخلها أرواح الأعداء ، وذلك عندما يخرج مرافقا لحملة حربية • وقد كانت هذه القواقع تسوى فى شكل شعب ، وتعقف ، فاذا دخلت الروح القوقعه حالت الشعب والعقوف ، وفقا لتصورهم ، دون هروبها • أما الطريقة التى كانت يغرى بها الكاهن الروح حتى تدخل فى الأسر ، فكانت تجرى على النحو التالى : عندما يدخل المحاربون أرض الأعداء ، يرحل الكاهن الى القرية التى يرمون مهاجمتها • وهناك عند مدخل هذه القرية ، يضع الخيط الذى ترص فيه القواقع فى شكل دائرى . ثم يدفن داخل الدائرة بيضة وأمعاء دجاجة تفاءل بها الجيش قبل خروجه

الى الحرب • ثم يهز الكاهن الخيط سبع مرات فى هـذا المـكان . ويستدعى أرواح الأعداء فى هدوء ويذكر اسما من أسماء أفراد القرية ويقـول : « ياروح فلان وفلان ، تعالى ودوسى على دجاجتى . لقـد نسبت اليك تهمة ارتكاب الخطأ ؛ فلتجىء » • ثم ينتظر هنيهة بعـد ذلك ، فاذا سمع رنينا للقواقع ، فان هذا يكون علامة على أن روح عدو من الأعداء قد دخلت القوقعة حقا ، وأن القوقعة قد أسرتها بداخلها • وفى اليوم التالى يذهب الرجل الذى وقعت روحه فى الشرك ، رغـم أنفه الى المـكان الذى ينتظر فيه الأعداء الذين أسروا روحه ، وبذلك يقع فى يسر فريسة فى أيديهم •

ومثل هذه الممارسات يمكن أن تعين على تفسير أعمال الساحرات العبريات اللاتى تحامل عليهن حزقائيل • اذ يبـدو أن هؤلاء النسوة اللاتى كن طريدات المجتمع ، كن يأسرن الأرواح فى أوشحتهن عن طريق طرحها على رءوس ضحاياهم ، كما كن يحتجزن أسراهم من الأرواح فى شباك كن يربطنها حول أذرعهن •

وبناء على ذلك فانه يبدو أن العبريين كانوا يحتفظون منذ عصورهم التاريخية الأولى بفكرة أن الروح تعد شيئا منفصلا عن الجسد ، وأنه من الممـكن عزلها عن جسم الانسان فى أثناء حياته ، اما عن طـريق أعمال السحر الشريرة ، أو بناء على رغبة الشخص نفسه الذى يسعى الى الاحتفاظ بها فى مكان آمن لمـدة تطول أو تقصر • واذا كان أحد أنبياء بنى اسرائيل الكبار قد صـور لنا الساحرة العبرية وهى تقوم بعملها الشيطانى لاجتذاب أرواح الآخرين ، فربما قدم لنا نبى آخر كبير من أنبيائهم لمحة عن سيدة تنتمى الى الطبقة العليا فى أورشليم وهى تحمل روحها معها فى سلة صغيرة • فبعد أن وصف هـذا النبى فى أسلوب من الطعن والسخرية تظهر بنات زيون (١) المتعاليات وتمسكهن

---

(١) وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن . يصلح السيد بنات صهيون ويعرى الرب عورتهن . ينزل السيد فى ذلك اليوم

بأهداب الدين ، هؤلاء اللاتى كن يسرن بعيون فاترة وخطوات وئيدة ، أخذ النبى أشعياء يستعرض الجواهر والحلى والأردية والشيلان ، وغير ذلك من الملابس والحلى المبهرجة التى كانت هؤلاء النســـاء المترفات الأنيقات يرتدينها • ومن بين قائمة الزينة الرخصـــية التى ذكرها ، أشار الى « مأوى الروح » • وهذا التعبير الذى ترجم ترجمة أدبية لا يتغير فى العهد القديم • وقد شرح المترجمـــون والشراح المحدثون هذا المأوى بأنه « صناديق العطور » ، (وزجاجات العطور) أو ما أشبه ذلك • ولكن ربما كان مأوى الروح هذا أشبه بتعاويذ كان يظن أن روح حاملها تسكن فيها • وقد أدرك المفسرون لعبارة النبى هذه ، أن كثيرا من الحلى الرخيصة التى ذكرها النبى كانت بمثابـــة تعاويذ سحرية فيما يبدو ، كما ما يزال يعد كثير من أنواع الحـــلى الذى يرتديه الأشخاص فى الشرق حتى يومنا هذا • على أن الكلمة التى تأتى بعد « مأوى الروح » فى النص العبرى ، نقلت فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » الى كلمة « تعاويذ » : أما الكلمة العبرية الأصلية فمستمدة من فعل معناه « أن يهمس » أو « أن يسحر » •

على أن تفســـير « مأوى الروح » عـــلى هذا النحو ، لا يعنى بالضرورة استبعاد تعريفها بأنها زجاجات العطور ، فقد كان مجـــرد شم العطور من وجهة نظر شعب من الشعوب كالشعب العبرى الذى كان يرى أن أساس الحياة هو التنفس ، يمثل مظهرا روحيا ، ومن ثم فان استنشاق عبير الروائح العطرية يمكن أن يعمل على نماء الحياة بالأنفاس • وبناء على ذلك فانه من الطبيعى أن ينظـــر الى الشىء نفسه الذى يتضمن هذه الروائح ، سواء كان زجاجة من العطـــر أو بخورا ، أو زهرة ، بوصفه مركزا لاشعاع القوى الروحية ، أى أنه مكانا مناسبا تتزود منه الروح بالأنفاس متى رغب الشخص أن يفعل

زينـــة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصـــائب والســـلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز .
(اشعياء ، الاصحاح الثالث من ١٦ الى ٢٠) .

هذا لبعض الوقت • وربما كانت أقوال الشعراء خير ما يستعان بـــه لتوضيح أفكار الشعب ومغزى هذه الأفكار • فالشاعر يقول :

لقد أرسلت لك فى وقت متأخر إكليلا من الزهر
لا بقصد تبجيلى لك بقدر ما اننى
أبثه أملى فى ألا يذوى
فلتتنشـــقى عبـــيره
وترديه الى مـــرة أخرى
فطالمـــا كانت أزهاره مزدهرة وذات أريج عطر
فاننى لا أقسم بها ، بل بك

ويقـــول شـــاعر آخر • •

أيتها الورود الذابلة الجميلة
انك لم تصبحى بعد مكانا لحبى

فإذا كان يظن أن الجمال يضفى من حياته وروحه عـــلى روح الزهرة حتى تظل نضرة ، فليس غريبا أن المرأة نفسها تستعين كذلك بزجاجة العطر حتى تظل روحها نضرة • ومهما يكن الأمر فان هـــذه الخيالات القديمة ان كانت قد عاشت بحق . من الطبيعى أن تفسر السبب فى اطـــلاق اســـم مأوى الروح على زجاجة العطر • وعـــلى كل فان المـــادة الفولكلورية التى نشأت حول العطور لم تدرس بعد • وربما استفـــاد الدارس ، فى بحثـــه لهذا الموضوع كما هو الحال فى بحث أى موضوع فولكلورى آخر ؛ من أقوال الشعراء الذين يدركون بالفطرة ما ينبغى علينا أن نعلمه عن طريق الحقائق المعملية • حقـــا انه بدون لمسات الخيال الشاعرى ؛ يصعب علينا أن نتعمق مشـــاعر الناس • ومن ثم فان البحث العقلانى ذا العاطفة الفاترة سيظـــل يطرق دون جدرى مدخل عالم الخرافة المصنوعة من أكاليل الورود السحرية • واذا كان « جراند جرند » من هؤلاء العقلانيين ، فـــان البواب الذى يقف حارسا لمدخل عالم الخرافة ؛ لن يفتح له هـــذا المـــدخل •